

الأدب

علي الخليلي

علي الخليلي حضوره وإبداعه الشعري

عبدالخالق عيسى*

حياته:

ينتسب الخليلي في المولد إلى نابلس المدينة العريقة العتيقة، التي كانت تسمى عش العلامة، ودمشق الصغرى، ولعنة في ذاكرة التاريخ حين أنجبت العظماء في العلم والأدب والسياسة، فكان عادل زعيتر، وخيري حمّاد، وإبراهيم طوقان، وفدوى طوقان¹، ولد علي الخليلي عام 1943، فعاشر في أزقّتها وحاراتها، ودرس في مدارسها، ثم حصل في العام 1966 على شهادة في إدارة الأعمال في جامعة بيروت العربية، وعمل مدرسا من عام النكسة 1967 حتى 1969، وانتقل إلى العمل في الصحافة، وظل فيها حتى عاد إلى الوطن عام 1977، فعمل محررا في صحيفة الفجر المقدسية، ثم أصبح رئيس مجلة الفجر الأدبي، ثم مديرها عاما، فوكيلا في وزارة الثقافة حتى تقاعد من العمل الحكومي².

"ولعل الميزة التي تسم النشاط الثقافي والإبداعي لعلي الخليلي، تتمثل في انخراطه الحي في قلب حركة الثقافة الوطنية الفلسطينية المعاصرة، مسؤولاً في مؤسسات ثقافية شعبية

ورسمية".³

* جامعة النجاح الوطنية – نابلس.

¹ عيسى، عبدالخالق: الحياة الثقافية في مدينة نابلس في زمن الانتداب البريطاني، تجلّيات حركة التاريخ في مدينة نابلس، دائرة المعارف الفلسطينية، إشراف أ.د. عادل أبو عمّشة (رسالة

² جعید، عبد الرحمن: علي الخليلي أدبيا، جامعة النجاح الوطنية، إشراف أ.د. عادل أبو عمّشة (رسالة ماجستير غير منشورة)، 2006، ص .5.

³ شقير، محمود: علي الخليلي حضور بارز في المشهد الثقافي

أعماله الشعرية^١

- .1. الكتابة بالنار.
- .2. تصاريض من الذاكرة.
- .3. جدلية الوطن.
- .4. وحدك ثم تزدحم الحديقة.
- .5. نابلس تمضي إلى البحر.
- .6. تكوين الوردة.
- .7. انتشار على باب المخيم.
- .8. الضحك من رجوم الدمامنة.
- .9. ما زال الحلم محاولة خطيرة.
- .10. نحن يا مولانا.
- .11. سبحانك سبحاني من طينك طوفاني.
- .12. القرابين إخوتي.
- .13. هات لي عين الرضا، هات لي عين السخط.
- .14. خريف الصّفات.

أعماله الروائية والقصصية:

- .1. المفاتيح تدور في الأقفال.
- .2. عايش تلين له الصخور.
- .3. ضوء في النفق الطويل.
- .4. موسيقى الأرغفة.
- .5. بيت النار.
- .6. خرائط وخيوط.

^١ سترد الأعمال الشعرية والروائية والقصصية مع بياناتها المفصلة في القائمة البليوغرافية

وكتب مقالات وطنية وقومية واجتماعية، تمتاز "بأنها تستعيير من الشعر لغته وتصويره للأحداث، الأمر الذي يثير في القارئ المشاعر والأحاسيس لما فيه من صور حية نابضة؛ لأن الكاتب يريد أن يقنع القراء بفكرة أو رأي، فلا بد أن يثير عواطفهم ويخاطب وجداً لهم حتى يكونوا أكثر استعداداً لقبول ما يريد، والخليلي شاعر اعتاد ذلك الأسلوب في ألوان أدبه"^١.

تعريف موجز بأهم أعماله الشعرية

أهم دواوينه

١. "الكتابة بالنار". منشورات مؤسسة ابن رشد . القدس . 1978 م.

يعطي الديوان اهتماماً كبيراً بحالة الرفض والتّمرّد التي ينشدّها الخليلي من الشعب الفلسطيني الرازح تحت الاحتلال، ويعبر في غير قصيدة عن توحّده مع الأرض (التراب والتاريخ والهوية)، و يجعلها حاضنة له، تعطيه دفء الأم وحنانها، ومن ذلك:

يوم ميلادي / دُثّرني بالأرضِ أمي / يوم ميلادي / عَمَدْتني بالأرضِ أمي /
فاسلخوا جلدي / تخلُّ الأرضُ في دمي^٢

من قصائد الديوان البارزة تلك التي يسخر فيها من زيارة السادات إلى القدس، ومن اتفاقيّة السلام بين مصر وإسرائيل، وجاءت سخرية ممزوجةً بألم حاد، وإحساس كبير بالضياع، ومنها قوله:

وصلَ السادات / فاغتسلاً يا أطفالَ الجلzon وشُغفاط / بماءِ الورد /
اغتسلاً يا أطفالَ بِلادي ، / يا أطفالًا نشأوا في حضنِ الجوع / وتحتَ
الخيّمات / وصلَ السادات / فاغتسلاً يا أطفالَ الوطنِ المذبوح / ... / اغتسلاً /
... / وتعلّموا مبسمين ومسرورين / فالنصرُ سيأتي / ها هو آت / غنوًا للنصرِ
الّتي من بلدِ الأهرامات / بالمؤتمراتِ الصحفية / بالتصريحات / غنوًا يا أطفالَ

^١ جعید، عبد الرحمن: علي الخليلي شاعرا، ص 118.

^٢ الخليلي، علي: الكتابة بالنار، منشورات مؤسسة ابن رشد، القدس، 1978 ص 11.

بلاطة. تل الزعتر/ ... / فلقد وصل السادات/ وصل السادات/ فتعالوا يا
أطفال بلادي/ يا من نشأوا في ليل النكبات.¹

ومن قصائده المهمة أيضاً قصيده "الفارس يصعد نحو الرمز" ويقدمها إلى شهيد الأمة العربية . كما يصفه . كمال جنبلات، وقصيدة إلى دلال المغربي².

2 . نابلس تمضي إلى البحر. منشورات دار الأسوار. عكا . ط 1 . 1979.

يتضمن الديوان ستة عشر نصاً، وقد اهتم بحالة الرحيل والشتات التي عاشها الفلسطيني في السبعينيات، وحمل الديوان اسم قصيدة من قصائده "نابلس تمضي إلى البحر" ، وفيها أشار إلى حالة التردّي التي وصلت إليها مدينة نابلس من فقر شديد أفضى إلى كثرة الشحاذين والجوعى، وتحدث عن انتشار الأطفال في الشوارع بلا معيل أو رقيب، فضلاً عن ذلك فقد وصف معاناة الناس بسبب الاعتقالات والعقوبات الجماعية. ومما وورد فيه:

نابلس إلى البحر، إلى البحر/ صفوفُ الأطفالِ الشحاذين، صفوفُ السجناء،
عصيٌّ/ الشرطةُ وبنادقُهم، وصراعُ الطبقات.../ يصحو الباعةُ جوعى/ آلاف
الفلاحين البسطاء تcabدُ في السوق الأحمال/ وتعطش، تسأل عن أثمان
البرقة واللوز المقلبيّ/ وأشكالِ الحلوى../ في صدرك ظلَّ المذبحةُ وظلَّ الخوف/
.../ نابلس العمال/ الحجارين/ المنكوبين⁽³⁾

وقد بدا لافتاً في الديوان تنظير الخليلي لفكرة اليساري تجاه الصراع بين الطبقة البرجوازية من جهة، والطبقة العاملة الكادحة من جهة ثانية.

¹ الخليلي، علي: الكتابة بالثار، ص 24 .28.

² المصدر نفسه، ص 72 .76.

³ الخليلي، علي: نابلس تمضي إلى البحر، منشورات الأسوار. عكا ، ط 1، 1979، ص 77، 78.

3. ما زال الحلم محاولة خطرة . القدس . ط 1. 1981

كُتِبَتْ قصائد هذا الديوان في السنوات 1978 و 1979 و 1980 في الوطن المحتل، ونشرت في الصحف والمجلات المحلية، وبعض الصحف والمجلات العربية، وجاءت المادة في ثمانٍ وثلاثين قصيدة.

وقد تناولت أحاديث مهمة في تلك المرحلة، ومنها محاولة اغتيال رؤساء بلديات المدن الفلسطينية، منهم بسام الشكعة، رئيس بلدية نابلس، وكريم خلف، رئيس بلدية الخليل، يقول:

والأرضُ تبكي أو تُقاتل / ثم تختزن الإشارة والدليل / نابلس تصحو والخليل⁽¹⁾ / ... / صارت في مواسمها فلسطين الجميلة / يا... كريم / يا هلا... بسام / ... / قال كريم خلف / جسدي قنديل / ويدي أعنابٌ ونخيل / وقامَةُ أرضي المحتلة / شامخةٌ حتى الشمس⁽²⁾

4. انتشار على باب المخيّم . دار الكرمل، عمان، ط 1، 1983

انتظم عقد الديوان في سبعة عشر نصاً، كُتِبَتْ خلال عامي 1981 و 1982، وقد حملت كل قصيدة عنواناً يتناول تحولات وأحاديث مهمة شهدتها هذان العامان المذكوران أعلاه، وأهمها القصيدة الأولى: انتشار على باب المخيّم التي حملت عنوان الديوان، وتناول فيها مجازر صبرا وشاتيلا، وأفاد من قصيدة درويش " مدح الخلل العالي"⁽³⁾، ومما ورد فيها:

فرشت جديتها على الصدر الممزق / مرحبا / ... فانتشر البنفسجُ والمجازر / والسنبالُ والمجازر / والمجازر / مرحبا / لم تنس صبرا مطلبا / ... / ولم تتسرّط

¹ الخليلي، علي: ما زال الحلم محاولة خطرة، القدس، 1981، ص 7.

² المصدر نفسه، ص 8.

³ ومنها قوله:

انتصر / إن الصليب مجالك الحيوي مسارك الوحيد من الحصار إلى / الحصار / بحر لا يلملل
الجديد، وأنت إيقاع الجديد... / لا شيء يكسرنا، ... / بيروت قصتنا / بيروت غصتنا

الأعناق/ حاصل، ثم حاصل.../ إلى قحطان شاتيلا/ إلى كلِّ الأمم/ شتى
¹
 وشتى/ كان موتا/ كان طوفانَ الحمم.

وحملت القصيدة الثانية تحدياً واضحاً، وعنونها بـ "لن يمروا" ومما ورد فيها:
 الحائطُ الآخرُ/ والشارعُ الآخرُ/ والمشعلُ الآخرُ/ لا بأس،/ لن يسقط،/ لن
²
 يسقط

والثالثة حملت عنوان "بيروت" وهي المدينة الأهم في ذلك الوقت، بسبب حصارها الطويل؛ للقضاء على فصائل منظمة التحرير الفلسطينية هناك.

5. وحدك ثم تزدحم الحديقة. منشورات البيادر، القدس، 1984.
 يتضمن الديوان أربعاً وأربعين قصيدة، يتناول فيها موضوعات شتى، ومن ذلك مجازر صبرا وشاتيلا³، والاعتقالات المتواصلة، مقدماً صوراً دقيقة لعتمة الزنازين، ورطوبتها، وروائحها، وضيقها، ومن ذلك:
⁴
 أيتها الزنزانا المعتمة/ كخمرة العيد ولا عيد.

ويقدم في الديوان إهداءات، ومن ذلك إهداؤه قصيدة إلى معين بسيسو⁵، وقصيدة إلى معتقل أنصار⁶ وأخرى إلى عصام السرطاوي، وفيها ربط دمه بدماء شهداء آخرين، و منهم سعيد حمامي، وعز الدين القلق، ونعيم خضر، وماجد أبو شرار، يقول:

يا عصام/ دمك الوطن الواضح/ دمك ملايين الشهداء/ يأتون دفعةً واحدة،/ يرسلونَ وجوههم وأيديهم/ وأرجلهم/ للنهر المقدس/ ثم يلبسونَ

¹ الخليلي، علي: انتشار على باب المخيّم، دار الكرمل، عمان، ط.1، 1983، ص 7.13.

² المصدر نفسه، ص 14.

³ الخليلي، علي: وحدك ثم تزدحم الحديقة، ص 13.

⁴ المصدر نفسه، ص 13.

⁵ المصدر نفسه، ص 37.

⁶ المصدر نفسه، ص 76.

الخراطِ القديمة / والشجر القديم / والتربَ القديم / ... / يا عصام / دُمك من سرطَة أتى لشبونة¹ / ... / دُمك البحر المتوسط / ودُمك سعيد حمامي / وعز الدين القلق ونعميم / خضر وماجد أبو شرار / ودُمك بيروت الوطنية / وبسبعة آلاف صبرا وشاتيلا / ودُمك معتقل الأنصار / دُمك سجن نفحة / ودُمك الأرض المحتلة / والأطلس الحزين كله²

6. سبحانك سبحاني من طينك طوفاني. اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، ط.1.1991.
كتُبَت نصوص هذه المجموعة خلال السنوات من 1987م حتى عام 1990م، وتضمّنت سبعة عشر نصاً، تناول فيها إطلالة الفلسطيني من وحل الظلام والحطام والجوع، وأجرى مقارقاتٍ بين حياة الشعب الفلسطيني في حاضره وأمسه، ومما ورد فيه:
حتى أتيت، أتيت، من وحل السقام / ومن كوابيس الظلام / ومن كراديس الحطام / ومن فتاتيت العظام / ومن شأبيب الغمام / ... / أتيت متسلخاً لتغسل عارهم / ومنبوداً للتجمع شملهم / ومكسوراً لتسند ظهرهم / ومهزوماً لتصنع نصرهم / ومكملاً نظيفاً، غالياً / فوق الشبيه، / وقبل أن تلد الذئاب سُخولها، / وتمدّ مائدة اللئام³.

وتتابع في الديوان أحداث الانتفاضة الأولى، وقدّم صرخات انفعالية فيها طاقة نضالية منحبسة، ورغبة شديدة بتقديم دعم معنوي لكلِّ مقاوم، ومن ذلك:

الحجر، الحجر / يا سارية، الحجر⁴.

وأفاد من بيانات الانتفاضة وشعاراتها، مقتنعاً بجدواها في إحداث نقلة نوعية في وعي الجمهور الفلسطيني في الداخل والخارج. يقول:

¹ الخليلي، علي: وحدك ثم تزدحم الحديقة، ص 93.

² المصدر نفسه، ص 96.

³ الخليلي، علي: سبحانك سبحاني، من طينك طوفاني، ص 10، 11.

⁴ المصدر نفسه، ص 23.

لَا صوت يعلو / فاكتفى / المصطفى / يده الرضا / يده القضا...¹

وصور في الديوان المذابح، وأنكر على العرب صمتهם، وتخاذلهم، واتهمهم بالتواطؤ، والاستمتاع بمتابعة أحداث الانتفاضة على الشاشات المرئية. يقول:

اكتمل المشهد / قوموا إذن عن شاشة التلفزيون الملون / هذه ليست حربا،
إتها المذبحة²

ويسبغ على الفلسطينيين قداسة، تجعلهم فوق شعوب الأرض؛ في صمودهم وتحدهم
وصبرهم وتضحياتهم، وهذا ما يجعله يستحق لهم، يقول:

سبحان من سندوا / سبان من صمدوا / سبان من هطلوا / سبان من
رحلوا / سبان من قرأوا السلام على السلام / ... / مثل اللائى في رمال الطيبين
وفي متأهات اللئام / سبان من صبروا / سبان من بذروا / كل البذور بلا
تراب أو غمام / سبان من حملوا / علم البلاد بغير أوسمة سوى الموت
الزؤام³

وأنخ في الديوان من سقطوا صغاراً في الانتفاضة الأولى؛ ومن الأطفال الذين ذكرهم
الطفل طلال بشارات، ابن قرية طمون. يقول:

الطفُل طلال بشارات / راعي الأغنام / في قرية طمون المستلقة على السفح
الغربي لـ "عيبال" / لم يرشق حجرا إلا ليهش على الأغنام

ويؤسِّطر شخصية الفلسطيني، ويجعله أقوى من الأسلحة كلها، وفي المقابل يكشف
عن استخدام الجيش أسلحة محرمَة دولياً. يقول:

¹ الخليلي، علي، سباتك سباتي من طينك طوفاني، ص44، 45.

² المصدر نفسه، ص46.

³ سباتك سباتي من طينك طوفاني، ص52، 53.

حاشا، ليس طلالُ هو الشاة أو العنزة/ حاشا، وهو الطفلُ الجبليُّ الواثق/
جبلاً لن يأخذه الزلزالُ/ ولم يكسره الفقرُ/ ولم يقهره القدرُ/ ولكنَّ القنبلةَ
الفسفوريَّة،/ والحربَ الكيماوِيَّة ضدَّ الأطفال؟¹ ...

7 . هات لي عين الرضا. هات لي عين السخط، مطبوعات وزارة الثقافة. السلطة الوطنية
الفلسطينية. ط 1، 1996.

توزَّعت مادةُ الديوان في تسع وعشرين قصيدة، كان من بينها القصيدة التي حملت
عنوان الديوان "هات لي عين الرضا . هات لي عين السخط" والظاهر أنَّ قصائد الديوان
كُتبت في مراحل زمنية متعددة، فيها حديث عن الغياب والعودة والخرافة في قصidته
"ضيقى مراحى وقىدى سمائى"

تلملمُ أشلاءنا مرَّة/ وتلملمُ أسماءنا مرَّة/ وتلملمُ أبناءنا مرَّة/ في المشارق.../
والصلب بينهم بيننا والترائب،/ حتى رأيت الخرافة تمشي على قدمين/ ...
لكنَّ الخرافة وحدَها من سلالٍ سرية²

وفي قصيدة "كستناء النار" يسخر من التفاوض والسلام ويتناول حلم الآخر بالدولة
الإلهية، يقول:

بالون العام السلمي 1990/ منفوخا بالجثث المزينة/ وبالخرائب الملوئنة/
 وبالخارطةِ الجاهزة لمستوطنين جاهزين للنسل والطاعة/ والتتوسيع والإنتاج/
عبر حدود الدولة الإلهية،/ بلا حدَّ أبدا.³

وفي قصيدة أخرى يضحك من الشعب الفلسطيني الذي بدأ ينسى حقَّ العودة، ويهمل
المفتاح، وهذا واضح في قصيدة "يا مضحكتنا حقا، حقا"

¹ الخليلي، علي: سبحانك سبحاني، من طينك طوفاني، ص 55.

² المرجع نفسه، ص 9.

³ الخليلي، علي: هات لي عين الرضا . هات لي عين السخط، مطبوعات وزارة الثقافة، السلطة الوطنية
الفلسطينية، 1996، ص 20.

ينزلق المفتاح بحفرة قفل أهمله الناس طويلا، / في التعب المترهل بينَ

^١الأكاداس

8. خريف الصِّفات . منشورات دار الزَّهرة بيت الشعر . رام الله . فلسطين
كُتبت قصائد هذه المجموعة خلال الأعوام من 1996-2000 م، وعددتها ثلاثة وثلاثون
قصيدة، تابع فيها الخليلي حالة الإحباط التي مُنِي بها الشعب الفلسطيني في مرحلة ما
بعد اتفاقية أوسلو، فبعد أن أمل كثيرا، سال الدم وتوزعت الأشلاء، وازداد الاعتقال
والقهر. ويثير في الديوان أسئلة وجودية تكشف عن قلق شديد، وإحساس كبير
بالضياع، سببه فقدان الثقة بمعطيات السلام، وبالمفاهيم الثورية التي تشرّبها الشعب
الفلسطيني وبنى عليها أملاً عريضاً، ومما ورد فيه:

لا أريد جوابا من الريح، أو من سكون العناصر / إنّي تركت لكم ما تبقى من
العمر / أو ما تبقى من الذكريات / مقابلَ أسئلة عاصيات / وأسئلة كاسحات /
نكر / وتفتح نعشى / وتشعل قشى / على قلقي طازج لا يقر / ولا يستحيل إلى
قشرة مِنْ نبات² / ... / وخذوا طيني / وخذوا بذرتي³

ضياع النّص الأول:

السيرة الذاتية:

تكشف سيرة علي الخليلي الأولى الموسومة بـ": بيت النار (المكان الأول . القصيدة الأولى)
عن ضياع بدايات مهمة في حياة هذا الأديب، وقد كان لها صدى كبير، وتأثير عظيم في
أدبه، وقبل تناول هذا الأمر، أقدم تعريضاً موجزاً بسيرته الأولى.

¹ المرجع نفسه، ص 25.

² الخليلي، علي: خريف الصِّفات، ص 71.

³ المصدر نفسه، ص 73.

فقد صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق في عمان، سنة 1998 م، وجعل إهداءه فيما إلى طفولته، وهذا أمر لافت، قد يكون فيه اعتزاز بالذات، وفي الوقت نفسه إشراق على طقوس الطفولة، وإنسانيتها التي أصاغتها الأحداث وبعثرها الزمن بفعل الاحتلال؛ يقول في إهدائه:

"إلى ذلك الطفل الذي ولد كهلا، ثم عاد إلى طفولته، في الهزيع الأخير من العمر"

وقد جاءت مادة السيرة في أربعة عناوين هي:

- الإهداء
- المقدمة
- الفصل الأول: المكان الأول
- الفصل الثاني: القصيدة الأولى

وفي المقدمة قدم عدة اعترافات، أولها أنه كاد يتخلى عن كتابة هذه السيرة؛ لوجود شظايا من تلaffيف حياته مبعثرة في ما كتبه في كتبه الفلكلورية، ثم تغلب على هذا الأمر؛ لأنّه أصبح في تقديره أنَّ أديب قد يتربّد في كتابة سيرته؛ خوفاً من سطوة الاعتراف، أو الانكشاف الذي يحرجه أمام المتلقين، أو يجعله مضطراً للدفاع أو التوضيح أو التعليل. يقول: "إلا أنني تراجعت عن هذا التخلّي، مقدّراً أنَّ أديب يقترب من فكرة سيرته الذاتية، يجفل في العادة،... وأول تبرير هو الانكشاف، أو الاعتراف أمام الآخرين."¹

وذكر أنَّ أديب اعتقد أنَّ يكون ركاماً من وهم، ويختفي دائماً من الحقيقة التي تعريه أمام ذاته، وأمام الآخرين، والسيرة هي الحقيقة التي تخرجه من الوهم، ومعنى هذا أنَّ الأدب بشعره ونثره من وجهة نظر الخليلي، وهم وخيال، والفن الوحيد الذي ينقل الحقائق هو فن السيرة، وإن كان الصدق فيها نسبياً، وإن جنحت إلى الخيال، ذلك لأنَّ الخيال يبقى مقيداً بالحقيقة والواقع² فضلاً عن كلِّ هذا وذاك فكرة السيرة تولد في خريف العمر، في

¹ الخليلي، علي: بيت النار (المكان الأول القصيدة الأولى) دار الشروق، عمان، ط.1، 1998م، ص.9.

² المصدر نفسه، ص.9، 10.

زمن يشيخ فيه الأديب، ويضعف جسده، وتراخي عزيمته عن التنقيب في تلaffيف الذاكرة عن ذكريات قد تكون مؤلمة أو محرجة، وهذا في حِدّ ذاته هو التحدي الأخير الذي يواجهه الأديب، وقد يفشل فيه.

ويلي هذا الاعتراف قرار بخوض التجربة، مدركاً في ذاته أن السيرة مكان ونص. فيندفع إلى المكان الذي يعيشه في البحث عن النص، ليجد بعد ذلك النص الذي يعطيه تفاصيل المكان، ويجسد له صلته بأجزائه وزواياها، لتبدا الحقيقة تنتج وهما، أو قل: ليبدأ الوهم بإنتاج الحقيقة الغائبة في نص حياته. يقول: "فاندفعت إلى هذا المكان الذي يعيشي، باحثاً عن النَّص، وإلى هذا النص الذي أصنعه، باحثاً فيه عن المكان، منذ النشأة الأولى. أو منذ بدأ الوهم يُنْتَج حقيقته، وببدأت الحقيقة تنتج وهما... وصار لي سؤال الطريق، أو سؤال السيرة، عن مكاني الأول، ونصي الأول، قبل أن تتعدد الأمكنة وتتدخل وتتقاطع، في رحلة العمر، وقبل أن تراكِم النصوص، فلا أدرِي أين المبدأ، وأين المنتهى فيها".¹

وفي هذا يعيينا إلى محمود درويش في ديوانه "لا تعذر عما فعلت" الذي أثار هذه الأسئلة جميعها، وجعل ديوانه هذا سيرة شخصية. يقول درويش:

أمشي على هُدُي البصيرة، ربما / أعطي الحِكاية سيرة شخصية²
ويجمع الخليلي بين ذاكرته، وذاكرة النص، في مكان واحد هو المكان الخاص والمكان العام في الوقت نفسه، وهو نابلس في القرن العشرين.

يبداً هذا النص من سيرته الأولى في نابلس من العام 1943، وينتهي في العام 1962، وقد اختار بيت النار (الفرن) أساساً يقوم عليه جزء الأول، ويحمل عنوان سيرته؛ وللأمر تبرير مقنع، أتناوله بعد قليل. أما الأماكن الأخرى التيجاورت هذا المكان في الحضور والأهمية فهي: زاوية الصوفيين، والمكتبة، والمدرسة، والدار، والدكان، والحرارة.

¹ المصدر نفسه، ص 10.

² درويش، محمود: لا تعذر عما فعلت، رياض الرئيس للكتب والنشر، ط 1، 2004، ص 72.

أما سبب اختياره للفرن؛ فلأنه واجه فيه كارثة سماها "كارثة النص الأول"^١؛ ففي العام 1962 سافر إلى السعودية ليعمل هناك مدرساً بائساً، وخلف وراءه جيله الأول من قصاصات الجرائد والصحف والمجلات التي نشر فيها قصائده الأولى وخواطره وفصولاً من رواية، داخل نملية قديمة في بيت العائلة الكبير، ليعود بعد سنة في إجازته الصيفية، ليجد أحد إخوته قد جعل البيت له ولزوجه، وقد نقل النملية إلى المطبخ، بعد أن استبدل بأوراقه الملائج والشوك والسكاكين، فينتهي بذلك نصه الأول إلى بائع ترميس أو في مزبلة الفرن، ثم إلى بيت النار.

والسبب الآخر لاختياره الفرن هو عمله فيه في فترة صباح، وقد حمل في ذاكرته كثيراً من متعلقاته.

وقد أكد حضور الفرن في سيرته هذه في استهلاكه لكثير من مصطلحاته؛ ومن ذلك قوله: "ولا بدَّ أن قصيدي الأولى، هي من هذه النار، وصولاً إلى معنى الشاعر، في بوакير خميرة الإيحاء، وعجينة التكوين، من رغيف ساخن على لسانى، إلى قصيدة "مقرزمة" من كلمات وصور ومخيالة مخبوزة".^٢

ويتواصل ضياع النصوص الأولى؛ ففي عمان في العام 1969/1970، تتلاشى مجموعة مختارة من أشعاره كان كتها بخط يده وأسماها "ملصقات على بقايا الشارع المنهار" في تداعيات أحداث حرب أيلول، فيزداد حزنه وألمه، وقد حاول عبثاً استرجاعها.

ثم يكتب في قرية العشمان، جنوب السعودية رواية كاملة سماها "مدرسون في المنفى، أو الصمت والطفح والسجائر" فيحملها إلى نابلس، ويحتفظ بها إلى ما بعد هزيمة 1967، ثم يسافر إلى ليبيا في العام 1969، ويعود بعد سنة أو سنتين بعد أن يتعمق إحساسه بالهزيمة والضياع، فيعمد إلى تمزيقها واللقائها في النار. يقول: "ويجوز أنني كنت أحسن بفقدان التواصل ما بين مراحل كتابتي. فكيف يعقل، كما توهمت، أن تبقى تلك الرواية

^١ الخليلي، علي: بيت النار، ص 12.

^٢ الخليلي، ص 11.

وحيدة، تحت سقف ذلك الفقدان؟ وهو ما دفعني، كما أحسب، إلى إلهاقها بحالة الضياع أو التضييع التي كنت أعيشها. أتراني، ما أزال أعيش هذه الحالة¹.

وفي هذه الخطوة يذكّرنا بأبي حيان التوحيدي الذي أقدم على إحراق كتبه في وقت تلاشى فيه أمله، وتعمقت مأساته ..².

ويعرف أن سخرية القدر لحقته إلى بيروت في زمن الحرب الأهلية؛ فهناك فقدَ قصصاً قصيرة كان قد نشرها في صحف ومجلات عربية تحت عنوان: "احتمالات الهاشم"، وقد إلى جانبها مادة شعرية، وشهادات، وألبومات صور، ورسائل وذكريات، وبعض قصاصات أوراق أخرى في موضوعات شخصية؛ مما أفقده ثقته ببيروت. يقول: "وللمرة الثالثة أو

¹ المصدر نفسه، ص 13.

² وفي هنا قال التوسيعي: "على أي جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرّياسة بينهم، ولمّا الجاه عندهم، فحرمت ذلك كلّه، فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويذسّون عرضي إذا نظروا فيها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها... وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدّهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشّهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمرءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الألم..."

وقد ذكر التوسيعي أنّ هذا الإجراء ليس جديداً في تاريخ الأدباء والمفكّرين فقد سبق إليه عددٌ كبيرٌ؛ وذلك ليعزّي نفسه بتجارب غيره من العلماء والأدباء ممن أقدموا على إحراق كتبهم، أو دفنهما أو رممهما أو تمزيقهما حين أيقنوا أن مجتمعاتهم لا تستحقّها، ومنهم أبو عمرو بن العلاء، وكان عالماً وزاهداً. أقدم على دفن كتبه في الأرض، وما عاد لها أثر، وكذلك وداد الطائي الذي كان يقال له تاج الأمة: بسبب زهده وورعه. طرح كتبه في البحر وأخذ يناجيها: "نعم الدليل كنت..." وهذا يوسف بن أسباط أودع كتبه في غار وسدّ بابه، وهذا أبو سليمان الداراني الذي كتبه في تنور، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك" ، وهذا سفيان الثوري مزّق كتبه وطيرها في الريح، وقال: "ليت يدي قطعت من ها هنا بل من ها هنا ولم أكتب حرفاً" ، وهذا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء، يقول لولده: "قد تركت لك هذه الكتب يكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار..

الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، ط 3، منقحة ومصححة وفيها زيادات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 15. 18/ 25. 1980.

الرابعة أو الخامسة، كانت السخرية القاسية تطاردي. ففي العام 1973، كتبت قد جمعت في بيروت بعض قصصي القصيرة التي نشرتها في الصحف والمجلات العربية، تحت عنوان: "احتمالات الهايمش" وجمعت من ذاكرتي بعض أشعاري القديمة، إلى جانب كثير من أوراقي وقصاصاتي، مع بعض شهاداتي، وألبومات صور شخصية لي، ورسائل وذكريات، كلها وضعتها في حقيبة كبيرة، وتركتها في بيروت، مغادراً إلى نابلس، وأنا أحسب أن بيروت أكثر أمناً وحماية لأورافي، من وطني المحتل، لكنّها ضاعت مع الحرب الأهلية، ومع حسبياني السادس والحزين في كل شيء⁽¹⁾.

هذه أهم النصوص التي أضعها، وظلّ يتذكّرها، ويحاول استرجاعها، وقد كان لها أثر عظيم في سلوكه الأدبي، وفي نصوصه التي أنتجها لاحقاً.

ضياع العمر:

تكرّر في أعماله تحسّر على سنوات عمره، وهذا أمر مألوف عند الأدباء، فالأديب حين يمرُّ به العمر يستعيد أيام شبابه، ويتّحدّر عليها، وقد يُكثر من تناول ذكرياته، وإن كانت تحمل ما هو مؤلم ومحزن، كما يقول المتنبي:

خَلِقْتُ الْوَفَا لَوْرَجَعْتُ إِلَى الصَّبَّى
لَفَارَقْتُ شَيْبِي مَوْجَعَ الْقَلْبِ بِاَكِيٍّ²

ومن النماذج في أدب الخليلي ما يعبر عن ألم من انقضاء سنوات في أمور تافهة ومن ذلك قوله:

ضَحَّكَتْ رِيحَهُمْ، ثُمَّ زَوْجَهَا صَرَصَرُّ / نَفَشُوا عَهْنَمْ، وَانْقَضَى عَمْرُّ فِي الْفَهَاهَةِ³

1. الخليلي، علي: بيت النار، ص 14.

2. المتنبي: شرح الديوان، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1979، 4\417 وما بعدها.

3. الخليلي، علي: نابلس تمضي إلى البحر، الأسوار، عكا، 1979، ص 17.

ويعبّر في موطن آخر عن حالة ضياع أكلت من سنوات عمره كثيرا، حتى وجد الطريق إلى المدينة المفقودة، ولعلّها تكون نابلس التي ابتعد عنها طويلا، ثم عاد إليها، وقد تغيرت ملامحه بفعل السنين، يقول:

وألي سرجي / عمر مرّ / سأقرأ شعراً شعبياً، وأغني، / وأقول وجدىك / يا باب المدن اللواعة، يا وله القيثار / ضلّت في السفر، الأنهرار / وأقول وجدىك¹
ويعيّدنا إلى مشاهد الحروب التي عاشها في طفولته، وحملته آلاماً لا يحتملها الصغار، فتبقى معششة في العقل والوجدان، يقول:

واليمامة تعرف صيادها فيشف الغناء / شاهدا / والحروب تهاونها سنة / ثم تأخذ من عمره ما تشاء²

وقد لخّص رحلته في الحياة في قصيدة "خمس أغانيات للولد الجميل" وممّا ورد فيها:
من أي قنطرة تمّر سحابةُ العمرِ الشقي، سألت شاهدي، / وأدينـت المسافة
من دمي فيها، لعلَّ على السؤال لها دليلاً / قالت: تقدم! فانتهـت لخطوـتي في
آخر النـقـق القـديـمـ، / ورـتـلت من حـرـزـها تـرـتـيلاً / لما تـنـاثـرتـ السـحـابـةـ فيـ مـعـابـرـ
لـلـيـلـهاـ قـنـديـلاـ / وـسـأـلـتـ شـاهـدـتـيـ: مـنـ قـرـعـتـ عـلـىـ أـبـرـاجـهاـ الـأـجـرـاسـ / لـوـلاـ طـلـعةـ
الـوـلـدـ الـجـمـيلـ عـلـىـ يـدـيـكـ جـمـيلاـ / لـوـلاـ صـبـاحـكـ، عـتـقـتـ أـحـزـانـهـ الـأـرـضـ الرـؤـومـ،
وـبـارـكـتـ / يـدـهـ عـلـىـ يـدـكـ الرـضاـ إـكـيلـياـ / لـوـلاـ تـرـابـكـ، طـرـزـتـهـ عـلـىـ الصـباـ مـنـديـلاـ/
لـاحـتـ، وـقـدـ لـاحـ الـوـفـيـ مـنـ الشـجـيـ، / وـهـيـأـتـ وـعـدـ الثـبـاتـ فـمـاـ تـغـيـبـ، وـمـاـ يـرـومـ
رـحـيـلاـ / يـاـ أـوـلـ النـسـبـ الـعـتـيقـ، وـآخـرـ النـسـبـ الـمـفـتـتـ فـيـ الـرـيـاحـ / عـشـيـةـ وـأـصـيـلاـ/
مـنـ أيـ فـاتـحةـ أـضـمـ أـصـابـعـ عـشـراـ، وـأـلـسـ أـلـفـ، / أـلـفـ مـسـافـةـ قـصـرـتـ، وـلـوـ
طـالـتـ، وـعـبـاتـ الـمـدـيـ مـيـلاـ / نـادـيـتـ شـاهـدـتـيـ، هـنـاـ وـتـدـ الـطـرـيقـ، هـنـاـ
الـطـرـيقـ، هـنـاـ

1 الخليلي، علي: نابلس تمضي إلى البحر، ص 24، 25.

2 المصدر نفسه، ص 40، 41.

ويلاحظ على شعره تعدد الأصوات، وتنوع المضامين، وتشعّبها، وهذا يعدّ من سمات قصيدة النثر التي أحياها الخليلي، وكتّبها.

ضياع المدن:

تحدث طويلاً عن ضياع المدن العربية، ومن ذلك مدن الأندلس، وأكثرها تكراراً في شعره غرناطة، ومما ورد فيها قوله:

ناديت يا "غرناطة" انتبهي، العساكر هاجروا:/ ناديت يا غرناطة" احترق،
البساتين التماثيل الوجوه/ السمر لم تثمر. وهذا القمح مبذول لغيرك/
والشواطئ أغلقت أبوابها/. ناديت يا "غرناطة" الدمع الدم الأكباد إن الليل
غول

ثم يربط ضياع عكا بضياع غرناطة، فعكا من أهم مدن فلسطين وأجملها، وأكثرها احتفاظاً بتاريخ الأجداد، وغرناطة من أهم مدن الأندلس وأجملها يقول:

ناديت يا غرناطة.../ ولم يرسم على أحد الشوارع وجه طفل/ رفعت بياري
وهتفت: يا أسوار عكا¹ / أي درب للوصول إلى المناير¹

وت بكى أمه على تفاصيل الحياة البسيطة التي غابت من واقع الحياة في مدينة عكا؛ ويتحسر على البحر الذي رحل عنا قائلاً:

أمي تغسل الصحون الفخارية والبلاستيكية في ماء البحر/ تفركها بالرمل/
تعلق وقت العشاء بأطراف ألسنتنا ذرات دقيقة دقيقة/ نعرف طعمها فورا،
نهتف هذا طعم البحر/ نضحك/. أمي تبكى وتقول هذا طعم الطابون في
عكا²

ويخصص قصيدة لمدينة عكا، يعنوها بـ"عكا، يا عكا" ويستحضر شخصيات كثيرة مهمة مرّت بها، ويتردّج فيها من التاريخ الحديث إلى التاريخ القديم، ومنها نابليون بونابرت الذي

1 الخليلي، علي: نابلس تمضي إلى البحر، ص 163

2 المصدر نفسه، ص 186

ارتدى عن الشام كلها مدحورا مهزوما، وعاد إلى باريس يكتب فيها مذكرةاته، مسجلا فيها بطولات عكا يقول:

أمس، وقفت على شاطئ عكا/ كان نابليون الأول، ابن كارلو وليتشيا بونابرت،
يضع قبضته المرتجفة، تحت ذقنه/ المدببة الواجهة، أمام الحصون
والأسوار المنيعة، في العام 1799، ثم يبكي، هو معبد/ الأمة الفرنسية، يا
عوا، يا عكا/. وكان يرجع مهزوما، عن سوريا كلها، إلى باريس، وإلى واترلو،
والى سنت هيلانة/ منفيا، يكتب المذكرات، يا عكا، يا عكا، أنت السبب، في
محصلة التاريخ،/ وفي قهر الأباطرة، حين أنت فماذا أنت، في المتحف
الحديث؟

وتصفعه في عكا المحتلة اللافتات العبرية التي أكلت أجزاء المدينة وغيرت في تفاصيل هويتها.
إنّ واقع المدينة يشهد بعروبتها، وأصالحة تاريخها، ويبدو أنه يتقاطع مع دروיש في فكرة
العبور التي جسّدتها قصيدة "عبرون في كلام عابر"، يقول:

أمس، وقفت عليك، فطاردتني اللغة العبرية، من أنت من أنا لطمني
اللافتات على/ الأسوار وال حصون، أنها من غير صلي، وأني من فعلة
القراصنة، في غارة عابرة،/ وفي ركام من الآثار الخرساء.

ثم يذكر عيسى العوام شاهدا على عروبتها، ويستحضر الحكايات الشعبية التي خرجت من
هذه المدينة، واستمدّت مادّتها من حياة الناس، وأساليب حياتهم، وطرق تفكيرهم. يقول:
كدت أصبح يا عيسى العوام، يا ولدي، تقدم في البحر، فلم أفعل، ولم
أتقدم إلى/ صحيتي خطوة واحدة، ولماذا يا عكا، أن يلعب لعبة السيرك، في
الذى يقوم/ فيه نابليون إلى خدمتي، في كتب التاريخ، وفي الحكايات
الشعبية، وفي قناديل جبل/ النار الفلسطيني؟/ أمس، وقفت على مثل من
أمثال أجدادك،

ويذكر المثل الشعبي الفلسطيني الذي يتكرر في واقع الشعب الفلسطيني، ويكشف عن
منعه عكا واستعصائه على الغزّاة "لو خافت عكا ما عاشت عالبحر" يقول:

"يا خوف عكا من هدير البحر" / همات، يا مثلاً مالحا مرا، من أفواه جفت
على المزيمة الوسطى، حتى كانت المزيمة / الكبرى، لما كان ردى جاهزاً تحت
قصف المدافع. / "لو كان عكا خافت، ما قعدت على الشط"
ولا ينسى أحمد باشا الجزار علماً في تاريخ عكا المشرق:
واقفة على الذاكرة، مثل طلعة أحمد الجزار، / فكيف أفلت أبوابك جنود
إسرائيل، واستراحة / على لافتات الشاطئ المطمئن؟

ثم ينتقل إلى التاريخ البريطاني في فلسطين، وإعدام القادة الثلاث عطا الزير، وفؤاد
حجازي، ومحمد جمجمو، مستفيضاً من قصيدة "الثلاثاء الحمراء لإبراهيم طوقان" علماً
أنَّ قصة هؤلاء القادة ترسخت في لوعي الشعب الفلسطيني، ودخلت في تفاصيل حياتهم،
ورددت في أغانيهم. يقول:

ولي أن أهتف حتى بالسجن القديم، منذ الثلاثاء الحمراء / "من سجن عكا
طلعت جنازة"، هل تذكرين عطا الزير وفؤاد حجازي ومحمد / جمجمو،
وقصيدة إبراهيم طوقان، ونشيد نوح إبراهيم / يا عكا، يا عكا / أمس، وقفت
على الصحف والكتب والملصقات وبطاقات المعایدة، أحاول أن / أربع
الدواير، وأدور المربعات / كي أدخل إلى عيشي العادي في المتحف، / لا بأس
من عاش / لا بأس من مات / لكنني فشلت

ولا يكتفي بما يعرفه عن عكا، بل يستنطقها لتقول له المزيد عن تاريخها، معبراً عن حبّ
صوفي لهذه المدينة، فتغدو في هذه القصيدة جدّة يتحلق من حولها الصغار، مستحيثينها
على سرد القصص والحكايات التي تعiedهم إلى تاريخهم، يقول:

حديثي من بعيد، يا عكا، / كي أقرب أكثر، / لأستمع إليك، على الأقل¹.

وتأخذ القدس اهتماماً كبيراً في شعره فيتحرّس على ضياعها، ويبحث عن ملامحها في كل
شيء، ويركّز على جمالها وفتنتها. يقول:

1. الخليلي، علي: هات لي عين الرضا . هات لي عين السخط، 143، 144، 145.

ونظل نبحث عن عيونك/ نبحث عن شغاف الجملة العصيّان والأدمان/
نبحث عن هسيس العشب/ والألوان/ عن نسل يقوم من الأزقة والبنادق
والبساتين الحزينة/ عن عناوين البيوت/ وعن مماس البحر:/ إن "القدس"
فاتنة إلى حد الطعان/ والبحر مأسور على أبوابها السبع،/ النقوش، الخيل،
والصحراء، والأطفال،/ نبحث: نحن لا نتذكرة الأشكال/ إن "القدس" فاتنة
وإن الشوك باق¹

ويقارب بين مأساة القدس ومأساة هيروشيما، في القتل والتدمر، والعقوبات الجماعية،
إيمانا منه أن الشعوب قد تتوحد في معاناة إنسانية وقهر جماعي يقول:
في ظهري القدس، وهيروشيما، وهيروشيما/ هيروشيما/ في وجهي. في
ظهري. وأنا أكتب أغنية عن ميراثي في الموت،

ويربط بين مأساتنا في الهزائم المتكررة، ومأساتنا في التفط المسروق مِنَّا، المستَغَلُّ من
أعدائنا ضدنا. يقول:

وفي النفط العربي/ وفي حرب 1948، 1967، 1973 وأقفال/ وقوابين/ فإذا
انفلتت من صدري المتعب أوطن ساخنة/ متعبة رائعة،/ طأطأت لها رأسي
ومضيت:

ثم يصف لنا جروحنا الدامية التي تبقى نازفة، ليلعق منها الذباب الموسلي، وفي هذا إشارة
إلى أن الأنظمة العربية تلعق من دمائنا وتعيش علينا، يقول:

يا أوطاني/ هل طأطأ هذا العصفور الرأس/ فلم يتسع في الجرح التمري
ذباب/ وأنا أمنح من دمي²

1 الخليلي، علي: نابلس تمضي إلى البحر، ص 165، 166.

2 الخليلي، علي: نابلس تمضي إلى البحر، ص 169.

ويتناول حصار المدينة (القدس) الذي لا ينتهي، ويكشف عن التلاعيب بأسماء أحياها وشوارعها وأزقتها، والإجراءات المتواصلة لتغيير واقعها السكاني، بزيادة عدد المهدود، وإنفاس أعدادنا، لفرض أمر واقع، ويتحذ هذه الأعمال سببا في رفضه لآية تسوية سلمية جائزة: القدس لم تزل محاصرة/ ولم تزل أسماؤها وأرضاها مصادرة/ فكيف تكتبن لي/ عن السلام والمراحل الجديدة/ كأنها طفلتنا الوليدة،/ كيف تجرئين يا مسافرة؟¹

ويستنطق قنديل القدس مستغثيا، لعلَّ صوته يصل إلى عربي غيور، فيتماهى في هذا مع محمود درويش. يقول:

يا درويشي يا درويشي/ صاح القنديل بعتمته/ وتدفق من صحيحته/ في النائي والداني/ يا غيّات الرحمة يا رحمني²

ويخشى على القدس من التغيرات في الأرض والناس لتغدو القدس التي نعرفها غير القدس المطروحة في أروقة الأمم المتحدة. يقول:

أيها المتغير من موسكو إلى مقدি�شو/ فاتنا مثل فريسة مضمدة بالشاشة الأبيض في الأمم المتحدة،/ لم أفهم كيف تغيرت القدس أيضا،/ حتى دخلت في أورشليم،/ وخرجت من جسدي³

ويوظف النص القرآني في حديثه عن القدس، مستفيدا من قصة موسى . عليه السلام . حين وصل الوادي المقدس، وكلّمه الله . سبحانه وتعالى . وشرفه بالنبوة. يقول:
امدد كفّيك، واخلع نعليك، إنك في القدس...⁴
ويتواصل بكاؤه على القدس.

1 الخليلي، علي: القراءين إخوتي، وزارة الثقافة، عمان، 1996، ص.55

2 المصدر نفسه، ص.49، 50

3 المصدر نفسه، ص.86

4 الخليلي، علي: القراءين إخوتي، ص.55

يا قدس، هذه فجيعتي / وهذه مدينتي، / وهذه نهاية الإنشاراد في نشيدتي، /
وهذه بлага المطاف في شهادتي؟¹.

ويخصص للقدس قصيدة بعنوان "يا قدس" يتناول فيها أبوابها السبعة التي ظلت مفتوحة، على الرغم من ضياع المدينة، ويربط معالمها بأرواح أجدادنا الذين دافعوا عنها، ليوثق الحاضر بالماضي في سيمفونية واحدة، ثم يحاول استئناف الهم لتحريرها، رابطاً الأرض بالسماء، يقول:

قمر القدس دم وضياء / والصخرة وردة

وينتقل إلى وصف معالمها ويبداً بقبة الصخرة، فهي تترعى في وسط المسجد الأقصى كطفل استلقى على صدر أمها. ثم يصف أبواب القدس. يقول:

ووجه عزيزة / يشرق من سلواط إلى باب العمود، ويصنع مجده / في كل الأرض
المحتلة / يكسر قيده / وتصير الأعشاب البرية / وبكاء... / القدس الأبواب
السبعة

ولا يقتصر الحوار والتحسر على المدن، بل يتعدّاه إلى خيرات هذه البلاد التي تتلاشى رويداً رويداً، فهذا عنب الخليل نفقد منه في كل يوم الكثير، بفعل المصادر والمتهوى، والتضييقات على المزارعين، ويؤكّد مكانة هذا العنب في النفوس، باستحضار ما كان يردّده الباعة المتجولون: "خليلي يا عنب" يقول:

وما في الخليل من عنب / إذا ذكرتم مرة "يا عنب الخليل" / ليس سوى ذاكرة
الدوالي / في قصائد الخشب / وربما في طفولة عصبية على الميلاد، / عصبية
على الغصب...⁽²⁾

وينفذ من هذا وذاك إلى ضياع البشر، فهـا نحن نضلُّ طريقنا ونضيع البوصلة. يقول:

1 المصدر نفسه، ص 151.

2 الخليلي، علي: القراءين إخوتي، ص 50.

وليس في بلادنا / سوى بلادنا / تموت مرأة، / ومرأة تفيق / تبحث عن طريقها، /
في ألف، ألف طارق، فتجهل الطريق مرأة، ومرأة تشُدُّ صدرها على الطريق¹
وتصاب البلاد بصدمة تجعلها تتأثر بطاقة طفل في الشارع، وهذا يعكس كثرة الضربات التي
تعرضت لها، فجعلتها مصابة بحالةٍ نفسية. يقول:

مولاتي / في الشرفة غافية، / حتى لطمتها "طابة" طفل في الشارع، / فانخرعت²
ويتعمق الإحساس بالضياع ولا نعود نعرف المسافة بين هذه المدينة الفلسطينية وتلك.
اسألوني عن المسافة بين حيفا وأريحا، / أدلكم على الصراط / يا أمها
الشظايا، / يا أمها البقايا، / سنكمل الطريق، أو نكمل السؤال من أريحا إلى
تطوان³.

ولهذا يلجأ إلى التقرير والتعنيف، معبراً عن عجزه في إدخال الحياة إلى أجساد خرجت
أرواحها، وماتت:

من أين لي أن أصنع السحابة التي تضم أمة بحالها / لتمطر السحابة / خلقا
جديدا من قداميس البشر

ويشبه الناس بالنعام تساق سوقا، لأنّها هُرمت من الدّاخل. يقول:
أصبح إنهم رعيتي / ... وأنهم نعام / تساق للعرض المسائي فترضى / وتساق
للفدا الصبحي ...⁴.

ويشبه العرب في سياق آخر بأهل الكهف، فهم في سبات عميق لا يستفيقون إلا بمعجزة
ربانية. يقول:

1 المصدر نفسه، ص 50.

2 المصدر نفسه، ص 52.

3 المصدر نفسه، ص 52

4 المصدر نفسه، ص 79.

سيان/ وأهل الكهف في حالتهم/ لم تلمس النوم فهم رجفةُ القرن،/ ولم ينفجر النسيان/ في ورقٍ¹.

ويصل به الأمر إلى احتقار ذاته الخوارة، الضعيفة، لينفذ منها إلى احتقار أمة تراحت وتهاونت. يقول:

يا جسدي/ أهْمَا الخائن النَّذل،/ البارد الجبان،/ يا جسدي، أهْمَا المهزوم والمذبوح وحدك،/ ليس لي سواك يا وحيدٍ²..

ويسخر من حالة التراجع التي تعيشها الأمة، فالناس ما بين أعمى لا يرى، وأخرس لا بنبس ببنت شفة، راضيا قانعا بالهزيمة. يقول:

أسئلة الأعمى تذوب في لسان الآخرين الذي يحاول الكلام/ منذ ألف عام/
ضاحكا من هذه الألف التي تحرر الأقدام/ كائِنًا جثته/ من غير ما علامه/
إلى وراء أو أمام³.

ويعبر عن قناعة كبيرة بالواقع الذي نعيشه، ولهذا يطلب من العرب أن يفسحوا الطريق لامرأة أبي لهب التي كانت تحمل الخطب وتشعله في طريق الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام، متأثراً في هذا بسورة "المسد". يقول:

لا تفسحوا الطريق لي/ يا إخوتي/ حَمَالَةُ الخطبِ/ وراء هذه الخطى/
وحامي/ ولغبي/ قد وهبت هويتي/ وحملتني أمة العرب.⁴

ويصبح لكثرة الهراء، وقد انهال الثقة بالعرب إنساناً عبيداً، ينتظر ما هو قادم دون عمل، أو تفكير، فيستفيق باكراً يخاطب الصباح، ويسأله عن الجديد الذي يحمله له قائلاً:

1 الخليلي، علي: القراءين إخوتي، ص 86.

2 المصدر نفسه، ص 80.

3 الخليلي، علي: القراءين إخوتي، ص 93.

4 المصدر نفسه، ص 93.

يا صبح يا كريم/ يا قاع الطبول للحقير من جماعتي، وللعظيم/ يا فالق
البذرة في العي والسميم/ يا فارشا معطفك القديم/ للعاشرين كلهم/ على
أنامل الرضا/ أو شفرات القضا/ سيان للجنة، للجحيم/ يا صبح يا كريم...¹
ويكتشف أن الضياع وتردي الأحوال لم يكن وليد ساعات أو أيام أو سنوات قليلة، بل هو
غير ذلك. يقول:

لنكتشف معاً أننا لم نهلك في الربع الأخير / من الساعة الأخيرة، من النفح
في الصور، والنفح في الرماد، / والنفح في القرب المقطوعة²

هذه نماذج مختارة من أدب علي الخليلي تمثل حالة الضياع التي تناولها في أعماله، وهي
تبعد حسّاً وطنياً عالياً، وإحساساً بالقهر والضياع؛ بسبب حالة التردد التي تعاني منها
الأمة العربية.

1 الخليلي، علي: القراءين إخوتي، ص 94.

2 المرجع السابق.

الخاتمة

استطاع علي الخليلي بنتاجه أن يعيش في الأزمنة والأمكنة التي عاشت فيها القضية الفلسطينية؛ فينقل لنا باقتدار أهم الأحداث التي وجهت بوصلة التضال، أو التراجع، أو الخوف والقهر، أو التخاذل والتراخي، فكان أدبه مادة تسجيلية، توثيقية، وقد ساعده في ذلك قصيدة النثر التي نظمها، فقد منحته رحابة في الخطاب، ومجالاً للتنوع والتفصيل، ولهذا نراه في القصيدة الواحدة ينتقل من أمر إلى آخر قد تكون المسافة بين الموضوعين كبيرة، لكن القارئ يمسك بالعلاقات اعتماداً على قرائين يبيّنا الخليلي هنا وهناك.

وممّا يميّز الخليلي عن غيره من كتاب الوطن التنوع في النتاج المعرفي الذي قدّمه: فمن دواوين شعرية، إلى سيرة ذاتية، إلى روايات وقصص، إلى كتب فلكلورية، إلى كتب في موضوع الصحافة، إلى دراسات أدبية ونقدية، إلى مقالات في موضوعات شّتى. ولعلّ أهم ما قدّمه، ما كان في توثيق المادة الشعبية من أفواه الناس، ومن ذلك:

. التراث الشعبي والطبقات

. أغاني العمل والعمال

. الغول . مدخل إلى الخرافات

. النكتة العربية

. أغاني الأطفال في فلسطين

. البطل الفلسطيني في الحكاية الشعبية

ذلك لأنّها حاولتربط الحاضر بالماضي بتجذير الظواهر والحالات، وجمع تفاصيل ملامح الهوية. ولم يستطع الخليلي في كثير من أعماله أن يحيّد فكره اليساري؛ ولهذا وجده يُقحم الصراع الطبقي، والظلم الاجتماعي في شعره ونثره، فأحياناً ينظر، وأحياناً يهاجم، وأحياناً يصف الحال، مؤمناً بانتصار الطبقات المسحوقة على البرجوازية في خاتمة المطاف.

ثبات المصادر والمراجع:

1. الأسطة، عادل. علي الخليلي في تداعياته ومكابداته، 2008.
[www.diwanalarab.com\spip.php?article14239](http://www.diwanalarab.com/spip.php?article14239)
2. جعید، عبدالرحمن. علي الخليلي أديباً. (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح الوطنية، 2006.
3. الحموي، ياقوت. معجم الأدباء، ط.3. منقحة ومصححة وفيها زيادات. د.م: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1980.
4. الكتابة بالنار. القدس: منشورات مؤسسة ابن رشد، 1978.
5. نابلس تمضي إلى البحر. ط.1. عكا: منشورات دار الأسوار، 1979.
6. عايش تلين له الصخور. ط.1. القدس: مؤسسة ابن رشد، 1980.
7. ما زال الحلم محاولة خطرة. ط.1. القدس: د.ن، 1981.
8. شروط وظواهر نقدية. القدس: منشورات الرؤاد، 1982.
9. انتشار على باب المخيّم. دار الكرمل، عمان، ط.1، 1983.
10. ديوان وحدك ثم تزدحم الحديقة. القدس: منشورات البيرادر، 1984.
11. شروط وظواهر نقدية. ط.1. القدس: منشورات الفجر، 1984.
12. سبحانك سبحاني من طينك طوفاني. ط.1. القدس: اتحاد الكتاب الفلسطينيين، 1991.
13. هات لي عين الرضا، هات لي عين السخط. د.م: مطبوعات وزارة الثقافة، السلطة الوطنية الفلسطينية، 1996.
14. القرابين إخوتي. عمان: وزارة الثقافة، 1996.
15. خريف الصِّفات. رام الله، فلسطين: منشورات دار الزَّهرة بيت الشعر، 2000.

16. الورثة الرواة من النكبة إلى الدولة. ط.1. عكا: مؤسسة الأسوار، 2001.
17. درويش، محمود. لا تعذر عما فعلت. ط.1. د.م: رياض الرئيس للكتب والنشر، 2004.
18. شقير، محمود. علي الخليلي حضور بارز في المشهد الثقافي
mahmoudshukair.com/ar/modules/news/article.php%3Fstoryi...
19. عيسى، عبدالخالق. الحياة الثقافية في مدينة نابلس في زمن الانتداب البريطاني،
تجليّات حركة التاريخ في مدينة نابلس. د.م: دائرة المعارف الفلسطينية، 2013.
20. المتنبي: شرح الديوان. وضعه عبد الرحمن البرقوقي. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي، 1979.